الاغتيال

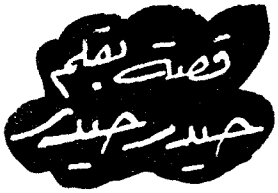

الى امرأة اسمها ف

تحت كفي كان الثدي . كان يفيض من بين اصابعي المنفرسة الضاغطة . ثدي من المخمل راحت اناملي تجسه وهي تزحف نحو قمته . اذ شارفت القمة ثم ضغطت باصبعين ترشحان جنسا ، آهت المرأة : انت تقتلني . آه .

كان الطفل منكبا في حضنها يبكي . ولما ازداد الضغط مدت عنقها باتجاه وجهي . رأيت الجنس يقطر من شفتيها . لا بد انها الموسيقى تلك التي تصدح قادمة من هناك . تأتي من الغابة ، او من اعماق حيوان سيذبح فيما بعد ، ام تراها موسيقى البحر ؟ الوقت سحر . رجل غريب يطلع طريق الجبل . انه في طريقه الى الكمين ، الى موطن العشق القديم .

كالقصب في الريح كنا نرتجف . نسمع الخطوات الوهمية القادمة من هناك مواكبة صداح للموسيقى . يا للفزع البهيج يقبل من أرصفة المدينة . يتولد منا ونحن هنا في هذه الغرفة نصطدم بعري آثم . تك . ترك .. تك . ترك ..

ماتت المرأة التي كانت تقية في الزمن الذي مضى .ان زوجها ينشج بحرقة رجل وحيد ، في غرفة معزولة . وها هم يتوافدون ليعزوه وينشدوا احزانهم على روح المرأة الصالحة .

ان عبدالرحمن بن جلول متأكد ان زوجته لم تخنه ابدا . كانت امراة نبيلة ذات وفاء نادر لا مثيل له بين بنات العرب والفرنجة . من اجل هذا حزن عبد الرحمن ، وتفطر قلبه على عائشة الورعة يوم ماتت .

ـ تصبر يا عبد الرحمن . ان الله مع الصابرين وهو يبلوكم بالشدة واوقات الضيق ليمتحنكم .

ـ حمدا له في السراء والضراء .

وعبد الرحمن بن جلول ثائر قديم . فقد عينيه ابان حرب التحرير . في القاهرة تعرف على عائشة المعلمة في مدرسةالكفوفين. أحبته وأحبها . وفيما بعد صارت زوجه وبصره .

كانت الجبال مغطاة بضباب كثيف في ذلك الفجر البارد، خفف من وطأته حرارة اللهفة في اعماق رجل احترف الصيد والغابات . هي الموسيقى تأتي من هناك . حزينة فرحة . وفيها شيء من بقايا غضب . بن جلول يسمعها ، والغريب الموغل في دروب الغابةيسمعها والذي يدمي شفة المرأة من فوق ظهر الطفل المنكب يسمعها ايضا .

في غرفة الحريم بدأ التجمع . بعد قليل تصدع المنشدات .

سيعزفن بنحيب صامت لا يلبث ان يرتفع ، ثم يصخب بهدير كهدير البحر .

حدث ذلك في غروب قديم ماعاد يذكر كل تفاصيله . كان يجلس على حافة نافذة البيت المطل على البحر . بالعذوبتها ووحشية عينيها المبرقتين في ذلك الزمن . ذلك مايذكره جيدا الآن .

والان . لقد تبدل النضر . في الوجه آثار طعنات . شرخه الزمن ، وفي العينين ما زال البرق لكنه حزين ومنكسر . وفيمامضى لم تكن القامة بهذا السموق . آه يا للصدر الخصب . انه يبدو كمرج معشب فسيح . ولكن من انذي يستطيع ان يتذكر جيدا !

ـ أتذكر ؟

ولكن من الذي ينسى البحر ؟ اكثر مما ينبغي تقدم الوقت .وقت بين الشروق والغروب بينهما تنفتح الذاكرة .

كانت الرحلة طويلة مذ سقطت تلك الشمس وغابت خلف افقها مخلفة بعض الاسى وكثيرا من النسيان .

يا الهي اية امرأة هذه التي تطلع الآن . هذه التي تستيقظ في وقت الضيق . في زمن نسي فيه الانسان وارتمى على كتف الرياح دونما جهة .

ـ واهم انت . لماذا تحدق بي هكذا كصقر جائع ؟ قلت لك انني وفية . لست منهن . دعك من هذه الالعاب ! لم يكن لابن جلول عينان. كان يتعرف على عائشة باللمس والصوت والرائحة . روى لها احداثا مروعة عن الحرب . عن القسوة والوحشية والالم وافراح النصر : كنا ناكل الخنازير والافاعي وجرذان الارض . ياحبيبتي عائشة كانالاسلام في الروح . أتعرفين قوة الروح ؟

بغبطة طفل تضحك المرأة . يغمرها فرح طاغ : خذني بينذراعيك القويتين . تلك هي قوة الروح يا عزيزي .

ـ لا . لا .انت واهمة . ايام الحرب لم اكن بهذا الحجم البغلي . كان جسدي كهيكل جرادة . الآن ترهلت . الليل .

موطن العشق القديم يتألق تحت ضباب كث . يخرج من الذاكرة ومن كهوف الارض . يقع على خارطة ما ، يغطيه العشب زمنا ، واذ يحين وقت الصيد يتجه الصياد نحوه بقوة الروح والشم وحنين الماضي . يزيح العشب عنه ثم يكمن فيه . اذ ذاك يضويه دفء الليل والامان .

مذ شارفالرجل الغريب المكان ، داهمه خفق لذيذ . ثمة موسيقى سرية بدأت تنمو . موسيقى مضوعة برائحة الغابات تنتشر

على مهل في مسام الليل كله . انه الفرح القديم .
وللمنشدات وقت . يخرجن في زمن المآسي من منازلهن . يتجهن صوب البيوت المفجوعة . يخرجن بقوة الشم والاستمرار والواجب . انهن مجللات بسواد يحاكي الليل . جماعات ، جماعات ،مصحوبات بدفوف وصنوج ، وبفرح داخلي مغطى بظلال الفجيعة .

ـ لم اسمع في حياتي بومة تنعق بمثل الحزن الذي نعقت فيه يوم موت عائشة . حطت على شجرة مجاورة وراحت تنوح .

ـ هل تفكر بالدعوى ؟.

وابتلع الرجل بقية العبارة . احس بحرج الموقف .

اجاب بن جلول : طبيب ملعون خائن . كان صديقا لنا .هؤلاء الاطباء الكلاب يقتلون القتيل ويمشون وراء نعشه . تصور انه اتى معزيا ومعتذرا . لست ادري من اين جاءني الصبر فلم اطعنه كما طعنني .

ـ تصبر . الم تسمع ماحدث لايوب ويعقوب ؟ الصبر مفتاح الفرج.

ـ مرتين فقدت بصري : يوم الحرب ويوم موتها . ما الذي فعلته لامتحن هكذا ؟

ومن مكانها تسيل دموع حارة . بن جلول يشهق .

بالجنس تتفتح امراة . والجنس مطر يهمي ويتدفق نحوالشعيرات الماصة ، ثم ينهض في النسوغ عصارة حياة . انها تضحك ضحكة ممزوجة بالفسق والتوق الضارع . تقول وهي تتفتح بضحكتها الزهرية : ها . عليك ان تلم هذه الاشراك وتمضي . من اين تعلمت هذه الالعاب ؟ كما قيل عنك : صياد قديم . انت واهم ووهمك كبير ككلماتك . انا امراة وفية لزوجي قلت لك . لست واهما . من زمن طويل وانت تنتظر قدوم هذا الوحش . من عيني الليل يخرج . وحش مكتسح يتقدم ، واينما سقطت قدماه يشعل الحرائق . لقد رايته من مسافة بعيدة . او قرات عنه في رحلات الصيادين عبر ادغال افريقيا او آسيا .وحش مخطط جميل مملوء بالذعر . عيناه تتقدان كنار في ليل ، يثب اذا ما احس الخطر مسافة مديدة ولا يخطيء فريسته . طلقة واحدة تحت الابط الايسر او في مؤخرة الراس تقتله ، اما الثانية فلا تنطلق ابدا . ومنذ زمن بعيد والرجل الغريب يفشى هذا المكان . ياتيه في الهزيع الاخير ، ومعه كل العاب الصيد .انه يكمن الساعات الطوال منتظرا عبور وحشه الجميل ، غير ان الريح كانت تسوق له ابدا الخنازير والثعالب . كانت تقبل على الروائح وتقع في الفخاخ ، واثر ذلك كان يسمع خفق اقدام فوق اوراق واعشاب الغابة . كان الوحش الجميل المخطط يبتعد . عائشة وحدها كانت تدرك لماذا يبكي بن جلول. كان يقول لها عندما تسأله عن الروح:الروح! قدرتي على معرفة لون عينيك وجلدك . بقوة الروح صار باستطاعتي معرفة قوة ضغطك الدموي . صار بامكاني ان اعرف وقتك . وقت النوم ووقت اليقظة . ووقت فرحك ووقت كآبتك . وقت قوتك ووقت ضعفك . آه يا عائشة انت لا تدرين كم احبك ! أتدرين علاقة الشمس بالاشعة ، والاخضرار بالغابة ، والجذر بالارض ؟ انت اشعتي واخضراري وارضي . ويضيف بن جلول : يقولون : المراة الجميلة مهياة للخيانة والمراة الدميمة مهياة للاخلاص . لا ادري في اي كتاب او صحيفة قرات لي هذا . هل طفلنا جميل ياعائشة ؟

ـ صورة طبق الاصل عن حبنا . اليس رائعا حبنا ياعزيزي؟

ـ بلى . بلى . كالخط القائم على حافة الليل والفجر . صفي لي يا حبيبتي لون هذا النهار ثم لون طفلنا .

السنة العاشرة اقبلت . اذكر كنت طفلة . وكنت احب البحر. بيتنا كان يشرف على البحر . كنت اجلس في النافذة . في المكان الذي جلست فيه قبل سنوات ، يوم كنت فتيا وشرسا وعيناك في مثل بريق النار تخترقان البحر وصدري . يومها كنت صغيرة وكنت احلم بصياد ياتي ويخطفني من نافذتي تحت ضوء القمر . يمضي بي في زورقه ونعبر الامواج والجزر وهو يغني لي ويطوقني . لا بد انك تعرف لماذا يحن الانسان لطفولته . ستشرح لي ذلك فيما بعد .اشياء احسها . انها هنا في صدري ما تزال تخفق كطائر طفل . تشبه نبعا جبليا او عشبا تحت مطر . انني اشعر بها تنمو وتتفتح . قل لي كيف تتفتح امراة برجل ؟

يدخل الرجال غرفهم يعزون بن جلول واقرباءه . وتدخل الحريم غرفهن يعزين الام والقريبات . وفي غرف الرجال ترتل ايات القرآن بصوت يشبه دوي النحل المحصور . وفي غرف الحريم تتجمع المنشدات ليبدان بعد التلاوة أنينهن المأساوي . الصوت الفاجع لدورة الموت والزمن .

بعد ان تنتهي الحرب يبدأ الزواج . يبحث مشوهو الحرب والمتقاعدون عن سرير ووسادة . ما عادت الغابات والكهوف تتسع لهم. يخمد الالق الناري القديم ويهجع في مكان ما من النفس . وذلك الحصان الوائب في الريح وفوق القمم يتعب ، فيبدأ باللهاث . انه الزمن . هذا الوحش الضاري الذي يطعن فرسانه بلا شفقة في مراكز حساسة . اذ ذاك يبدأ نشيد الحزن . يشعر بن جلول بذلك في وحدته القاسية ، كذلك الرجل الغريب ، والمراة التي اهتز عالمها القديم . بحرارة تضاهي حرارة الارض في الصيف ، تتحدث عن شوقها . عن لوحة غريبة في راسها : سماء بلا حدود وارض خضراء مفتوحة . واثنان يجريان حفاة فوق العشب ويتسلقان الاشجار ياكلان من شجر البراري ويسعدان بالغناء . يشعلان ويشتعلان نارا لا تخبو في جميع الليالي . ويكونان اصدقاء الوحوش والاراضي .

ـ واذا ما هطل المطر ؟

ـ يلتحمان في الكهوف .

ـ واذا ما فاجاهما الموت ؟

ويهتز الصمت .صمت فتي ، حزين مباغت .

الزمن .

كان بودي ان اسالها : لماذا تخون امراة بعلها الدهري ؟ لكنها فاجأتني سائلة : لماذا يشوه رجل عالم امراة ؟ يا الهي كم هي مسؤولة هذه المراة . لا شك انها مصابة بوباء الدهشة امام جميع الاشياء . لكانها قد ولدت قبل خلق العالم : ماذا يقول العصفور وهو يرتجف من البال ؟ ماذا تقول الموجة للشاطىء ؟ لماذا هذه الشجرة اكثر اخضرارا من الاخرى ؟ هل تشبه الارض المراة ؟ أانت ممتلىء بي كما انا ممتلئة بك ؟

امام هذا الانهمار العجيب للاسئلة ، اشعر برغبة الاندفاع نحوها. أطوقها موقفا دفق الاسئلة . اقبلها في كل مكان من جسدها . في الاعلى والوسط والاسفل ، فترتعش تحت ريح الضغط والقبل كفصن غض : قبلني ايضا . خذني . ثم تهمس سائلة : هل ساكفيك ؟ انني انظر اليها وهي بين ذراعيّ . هذه الطفلة الدهشة الممنوحة لي في ازمنة الضيق والخوف ، وكلانا يتقصف فزعا من الخطوات البعيدة التي تدق الارصفة . تقول : في عينيك جوع مزمن . الست حارة وكافية ؟ فيما مضى قبل ان تاتي كنت كجبل الجليد . قبلني على رمانة كتفي . هنا مركز اثارتي .

يا الهي اية رائحة مؤججة . ان العالم يتفتح برائحتها : ارغب طفلا منك . اضغط اكثر .

ـ وسيم ممتلىء بالصحة . يتبختر في خطواته كفرخ حجل . عيناه في لون البحر . انت تذكر لون البحر ياعزيزي ؟

ـ اجل . اجل . من ينسى البحر ياعائشة ! كان الجبل الذي ترابض فيه مطلا على البحر . آه جبل هيبون . كم تبدو بعيدة الآن هيبون الرائعة . يالتلك الايام المفعمة بالعظمة والحزن .

ـ ها . لقد بدا الحزن يطفو على وجهك مرة اخرى .هل انت الوحيد الذي حصد الريح بعد الحرب . انهم هناك فوق الارصفة

ممددون امام الافران والخمارات والمقاهي وداخل اكواخ الصفيح خارج المدينة يشبهون وباء ضاريا عزلوه حتى لا يصيبهم بالعدوى .

ـ كفى . كفى . اعرف ذلك . اعرف . انني اشم روائحهم . اعطني وجهك ووجه طفلنا .

ويستقر الطفل ووجه عائشة على صدر بن جلول المنتحب .

يشعر الرجل الغريب بالصقيع الليلي ، فيحفر حفرة يشعل فيها نارا . ما زال هناك وقت لقدوم وحشه الذي يتربصه من اعوام. انه يعرف ان الروائح ستجذبه عندما تهب الريح . من هنا طريقه وهو قادم من الشرق . من قمة الجبل يتقدم بخطا وجلة لكنها وثابة وقوية . مرة واحدة ستخونه خطواته ولكن على مراحل .

المرحلة الاولى وهي تقوده باتجاه الروائح .

والمرحلة الثانية وهي تدخل دائرة الكمين .

والمرحلة الثالثة وهي تشل تحت وطأة الطلقة بعد اختراقها القلب .

كان بن جلول نمطا بدائيا متفوقا في جبل هيبون وكانت له قدرة خارقة في تنفيذ العمليات الفدائية والنجاح فيها ، لكنه كان ينفذها بفردية خاصة لا تعرف قيمة الخطر . رجل وحيد يكشف في لحظة التنفيذ الروح الخلاقة التي تحدث عنها لعائشة . وليلة مزقت الشظايا بصره ، صاحوا به أن يعود فالعدو ينصب كمينا محكم التطويق .لكنه لم يسمع الاصوات . تقدم واخترق الكمين وقاتل بشراسة وحش وزحف عبر الادغال مضمخا بالدم وبلا عينين .

ـ اتعرف ما الذي يقوله لي ؟ صارت لك رائحة خاصة ياحبيبتي. من اين هذا التفتح العذب لجسدك . اشعر بدوار مجنون وانا استلقي على ذراعيك . هل تضعين رائحة خاصة تحت ابطك ؟

ـ خلال عشر سنوات وانت تنامين مع رجل لا يعرف معنى رائحة ابط امراة ؟ اية امراة مخلصة تستحق تمثالا يرمز للعفة والشرف ؟

انها تضحك بمرارة من هذه الكلمات . تقول : التمثال الذي تتحدث عنه تستحقه بقرة . اما انا فاحلم بتمثال امراة عارية تجتاحها عاصفة .

الرائحة .

استعدت المنشدات . الحجرة تسبح في ضوء الشموع وضباب البخور المتصاعد . عما قريب يبدا الصوت العميق . صوت ذاكرة الزمن والتاريخ .

لقد بدا الوقت يتقدم . ثمة ريح رخاء تهب من الشرق . لا بد انها تقود الوحش الآن .

ـ اقذفي بهذا الطفل الى الخارج . في هذه الليلة اشعر بمقت شديد للاطفال .

ـ الن يكون لنا طفل ؟

ـ لنا !

ـ اجل . لنا . سالد لك طفلا وسيكون اجمل واذكى طفل.

ـ الطفل سلسلة وانا اريدك طليقة .

من وجهها تشع ضراعة ام . وله امراة تحب الاطفال . تقول : الاطفال كالزهور وكالبحار . ان يكون للانسان طفل شيء مدهش . الا يدهشك الاطفال ؟

اسالها : هل قرات او رايت وحوش البحر ؟

ـ سمعت عن الحيتان والدلافين .

ـ لا . ثمة وحوش اخرى لا نعرفها تقطن اعماق البحار . انواع اكثر ضراوة من الرجال المتوحشين .

كهبوب العاصفة المفاجيء ، عاد الارتعاد . كذلك عادت الموسيقى تصاحب ايقاع الخطوات المتقدمة . ولا بد انه بدا يشم رائحة الخيانة، وفي امسيات مضت انتشرت الرائحة من العيون ومن الصمت الزاني.

ـ أتعتقدين انه يعرف ؟

ـ اعتقد . بامكانه ان يتصور ابليس ولا يتصورك . لقد نسيت ان اقول لك انه الح الى احتفاظي بك اكثر مما ينبغي .

ـ ولو فاجاناهما ؟

ـ ارمي القفاز في وجهه .

ـ لكنك ترتعشين خوفا . انظري الى يديك . لقد بح صوتك.

خرج الطفل . صار بالامكان ان نحتفل بلحظتنا الخاطفة . كل شيء بدا يتحدث فينا بلغة اخرى غير الكلمات . الروائح تعبق وتتداخل . موسيقى حزينة وعذبة تخرج من المسام وتدخل في المسام . لقد بدا الجنون الدوري المرتعد للجسد . اكثر حرية من الريح في سجن من زمن مطوق بالخطوات وحس الخيانة المتفوق . تك . ترك . تك. تـرك .

وفي زمن مضى كان بن جلول يمارس حريته المطلقة وهو يضرب في غابات الجبل . كان يعتقد انه سيد الغابة وملكها . يعرف المداخل والمخارج ، الحدود والكهوف ، الوحوش والحشرات ولون الشجر والصخر . ويعرف فصولها الاربعة . كانت الغابة سيدة مطواعة تنام تحت عينيه . فيغفو هانئا مطمئنا على صدرها . يشم روائح اوراقها وعشبها وترابها . تطعمه وتسقيه وتفتح له ذراعيها لينام متى شاء في النهارات والاماسي .

لقد غنت الغابة لابن جلول طوال سنوات الحرب اجمل الاغاني واعذبها ، ورقصت له ابدع الرقصات ، وما ظن يوما انها تخونه .

ويوم طوق بالكمين الخائن شعر انه فقد شيئا عزيزا عليه . لقد اعطت الغابة نفسها لاعدائه ليفتكوا به اخيرا .

وبدل الدمع بكى بن جلول دما حارا . سقط على وجهه فوق عشب الغابة وسقاها من دمه : حتى الغابة تخون ! وما كان باستطاعته فهم حالة الموت . كانت الروح القديمة تدوي في اعماقه : لم تمت عائشة ولا الغابة استسلمت . الروح لا تموت وبن جلول ماخوذ بوعده. الوعد القديم . لقد تحول في نفسه صوتا داويا في عمق البحر وانتشار الغابات التي تغطي جبال هيبون العاصية . سكن الوعد والصوت دمه . قد تخون الغابة لكن الصحراء كانت وفية ابدا . كذلك عائشة التي لم تمت .

ـ اسمعي . اننا ننتظر . غير انهم سيعرفون يوما معنى الخروج من اكواخ وبوابات الافران والخمارات . سيأتي زمن يخرجون فيه من غفلتهم ويومها سيخترقون الارض خارجين من نطاق الصحراء ويتجهون صوب مدنهم ومكاتبهم الانيقة ومتاجرهم . يوم الرعد ياعائشة سيقبل . وارواح الملايين الذين سقطوا هناك تدوي في الصخور وجذوع الشجر . اسمعي جيدا صوت الريح . انها تقول شيئا آخر . اه لو تدرين ماذا تقول الريح !

يحس بن جلول بالارهاق بعد هذا الحماس فيهدا قليلا . يطلب فنجان قهوة وسيجارة . مع القهوة والتبغ تتمدد غبطة مشوبة بغيض حزين . يداعب وجه عائشة فينزاح غشاء الحزن : الحق اقول لك يا عائشة : اشعر وانا امسح وجهك كانني امتطي حصانا يخب فوق كثبان رمل ناعم . آه . كم هو ناعم وجهك ياحبيبتي .كم هو وفي!

ـ اتعتقد اننا لسنا في حلم ؟

ـ لماذا يكون عليك ان تفعلي هذا الشر ؟

ـ ما هو الخير وما هو الشر ؟

حالة غريبة .نوع من الكابوس المريح والمقلق . يأتي على حافة النوم واليقظة . يعبر وعي الانسان مضيقا . يغيب هناك وتتوالد شرارات جديدة من ارض لم نكن نعرفها لكننا ننتبأ بها ونحسها هناك في اماكن بعيدة مضيئة ومظلمة . وها نحن نحمل فوق مسارات شفافة. الوان غريبة . وروائح ذات مذاق سار وعذب . ان الزمن يسقط . الزمن القديم يتقشر كجلد افعى . لا . ليس هذا بالزمن المعروف في

التقاويم . دورة لولبية داخل بقاع مجهولة . تعرف ولست تعرف. ترى ولا ترى . انني مخطوفة باضواء تخترقني . تفتح لي دروبا لم اعهدها . كمنومة اتقدم داخل هودج عرسي الجديد . قفوا قليلا وسط هذه المروج الخضراء . دعوني استنشق عبير طفولتي التي مضت هنا . دعوني امرغ وجهي فوق هذا العشب المخملي . ها انذا اعود الى بيتي القديم . سأقف عارية قرب بحرنا الاخضر . هذا الذي قرأت عنه ورأيته في زمن قديم . انها عودة الوداع الاخيرة. وها هوذا عريسي يخرج من البحر . عاريا يأخذني ويمضي . يا اله العذوبة والمسرات ما هذه الالوان . ما اسم هذا الوطن ؟ ايه.الريح. انني محمولة فوق تابوت اخضر . العشب يطلع من جسدي وانا افيض مملوءة بهذا السحر الدفاق . لا بد ان امطارا غزيرة تنهمر فوق جسدي المرتعش . ها انذا اهوي في لج البحر . قلبي ينفطر وانا انزلق للقاء حبيبي .

النشيد .

هوذا نشيد هيبون يبدأ . . نشيد الزمن البربري . يخرج من الغرفة الموحشة ومن آفاق الصحراء . أنين حنون ترتله الباكيات المنشدات في عرس بن جلول الاخر . النشيد الذي كتبته بالدم وهن يسقطن فوق الارض في ذلك اليوم الرهيب . كان الرصاص ينهمر مطرا من فوهات بنادق الجند . كان الرصاص يحصد النساءوالاطفال ويغرق شوارع المدينة وارصفتها بالدم ، ويومها لم يكن الدم الاخر قد تخثر في شوارع سطيف وسيدي يوسف وميسلون .كانتالنسوة يندبن وهن يزحفن على بطونهن التي مزقها الرصاص . يحاولن ان يكتبن بالدم على الجدران كلمات لم تكن تكتمل ، ذلك لانالرصاص السريع الملعون كان يطعن الفقرات بقسوة وألم .

ـ اتسمعين ؟

ـ ماذا ؟

ـ اصوات .

ـ من اين ؟

ـ من كل مكان .

ـ لابد انك واهم ياحبيبي . هذه ضربات الفزع في قلبينا.

ـ أبدا . اصوات اخرى . وقع خطوات . تاك . ترك . تاك ترك ..

اطفأ الغريب النار في الحفرة . الريح تهب من الشرق قوية وباردة . عليه ان يتاهب . لحظة الفصل اقتربت . لابد أن يأتي مع الريح هذه المرة وفي الوقت الملائم .

كان الضباب ينقشع موليا فوق أعالي الاشجار . وكان صوت حفيف الورق يسمع في هذا الحفل التراجيدي . بهدوء لقم البندقية ساحبا طلقة باتجاه حجرة النار . كانت البندقية باردة لكنها في وضعها المتاهب .

انتشري ايتها الروائح اكثر فأكثر . ولتهب الريح حاملة رائحة اللحم باتجاه الوحش الجميل . آه . يا وحشي الحبيب . هيا تقدم. الاحتفال المجيد ينتظرك .

ـ ليكن عريا كاملا . اريدك الليلة لي وليكن الموت .

ـ خائف انت مثلي ؟

ـ اكثر خوفا من الخوف نفسه . دعينا نحتفل بهذا الخوف علنا نقهره .

ـ ايـن ؟

ـ هنا فوق هذا البلاط العاري .

ـ وسيرى كل منا جسد الاخر كما ولد ؟

ـ لا جسد في العالم يضاهي الجسد البشري الجميل غيرجسد الفهد المخطط .

ـ هل رايت فهدا في غابة ؟

ـ لا . انما شاهدته يصاد في شريط سينمائي . حاصروهوارغموه على اللجوء الى مغارة وهناك اغتالوه .

ـ لماذا يصاد مادام بهذا الجمال المدهش ؟

عبثا تحاول عائشة اقناع بن جلول . انها تقول بحسرة : لا فائدة من كل الاحلام . لقد انتهى كل شيء . قتل من قتل واغتيل من اغتيل. جنود قلوبهم فوهات بنادقهم . ينفذون اوامر عمياء يزرعون الشوارع والازقة ويحصدون البشر بلا استثناء . الرعب والاستسلام في كل مكان . لا فائدة يا عزيزي لا فائدة ، هذا زمن الدم . صار بينالبشر دم والدم يصيح ماعاد بالامكان ان يهدأ . لقد شرب الانسان من دم الانسان ومن يشرب الدم يصبح وحشا . الذين تتحدث عن خروجهم لو رأيتهم لتغيرت . صاروا كالدود الممدد . هكذا تحولوا بعد ان اخذت البنادق وغادروا مواقعهم في الجبال . لقد تثلموا يا عزيزي ووطنهم الزمن القاسي . ما عاد بالامكان ان ينهضوا .

ـ آه . كم انت واهمة يا حبيبتي . انت لا تعرفين ذلك الشيء المباغت . الشيء الذي يولد فجأة كمطر هيبون ورعودها واعاصيرها . الا تذكرين الايام الاولى ؟

وتقول عائشة بصوت فيه كل مرارة الزمن : ولكن ضدمن الآن ؟ فيما مضى كان الغرباء هنا . اما الان .. آه . دعنا من هذا. الست جائعا ؟

هذه اصوات اخرى لاصلة لها بالاقدام التي تدق الارصفة، او التي تتقدم عبر الادغال باتجاه مواطن عشقها . ان صوتالمنشدات الذي بدأ الآن يذكر بتراتيل قديمة وحزينة ، قيلت وتقال منذ عصور لا تعرف بدايتها ولا احد يعرف نهايتها . انهن ينحن فتتحرك رؤوسهن واجسادهن المتشحة بالسواد ، داخل غرفة تفيض بروائح البخور والعنبر والمسك . ثمة امراة من جوقة المنشدات ترفعصوتها الاكثر حزنا وعمقا وهي ترمي بالبخور الى النار :

عميقا ... عميقا . ليكن حزننا

العروس ماتت ولم يكتمل حبها .

بطيئا وعميقا كموجة تولد من قاع بحر ، يتمدد الصوتويرتقي. فيشيع جو من الاسى الدفين والرهبة . بن جلول في الغرفة مع الرجال يشعر بالارض تئن تحت قدميه . صوت النحيب يخطف روحه. لقد ماتت مائشة اذن !

عميقا ... عميقا ليكن حزننا الليلة .

العروس ماتت ولم تكتمل زينتها .

أخيرا هاهي الريح تحمله . حذرا يخطو . صوت خفي يناديه. صوت اضعف من ثقته وجراته . انه يتقدم في فجر اشهب يشبه لون جلده .

وفيما مضى عرف انهم هناك فتقدم نحوهم واخترق الحصار. كان يعرف موقعالكمين ويعرف منفيه ويعرف معنى ان يقتحمدونما وجل. لم يكن يعنيه غير شيء واحد : أن يعلم الجبناء كيف يقابلون لحظة التحدي . كان يحس وهو يتقدم بتلك القوة الخارقة للرعد الوحشي المضيء وهو ينيره من داخل .

ـ لا يختلف جسدك عن ارض هيبون الابدية الاخضرار .

ـ لماذا لا تكفي امراة رجلا ؟

ـ الرجلالحقيقي يضجر وقلبه يتسع لاكثر من امرأة .

انها تنوح بينما تجتاحها ريح الخوف من اخمصها حتى مفرقها. لاول مرة تخون . انها تقول : عندما تنزلق القدم في منحدر لا تتوقف حتى الهاوية . هل تعتقد انني بغي؟

في عينيها وعلى وجهها يتلألأ سلام وغبطة الجنس . غير ان هذا الخوف القادم من مسقط الطفولة يشرخ غبطتها . وتقول ايضا : من اين جئت ؟ قبلك كنت مطمئنة . دخلت حياتي كاعصار او وباء .قل لي ما الذي فعلته بي . هل ستتركني يوما ؟ ها هي تركع . تبدو في شفافية الاصيل كفينوس . مضيئة ، ضارعة ، في عينيها يترقرق دمع . يسيل الدمع : قبلني ايضا . لو تقتلني وتحملني معك الى الغابات . انني اسمع صوت خطواته . الا تعتقد انه نصب لنا كميناً؟ يا الهي متى ساكون لك بكامل نفسي وجسدي . لعن الله الخوف.آه! الخوف يطعن رغبتنا . اضغط اكثر وبسرعة .

ـ ولكن هذا اليس شرا ؟

ـ شر ام خير . لقدحدث وكفى .
ـ لو عرف انك خنته ؟
ـ يقتلني او ينتحر .
ـ انا أعتقد غير هذا .
ـ مـاذا ؟
ـ سيشعر بحزن عميق . جرح اخر يضاف الى جراحه الاخرى .

كانت الرؤية قد بدأت تتوضح . ظهر الخيط الابيض من الخيط الاسود . انه يسدد نحو اكثر من اتجاه يتوقع قدومه منه . يتصوره طويلا مزهوا بمشيته التي تشبه مشية الامراء . الخط البصـــري للتسديد يمتد من الحدقة الى الشعيرة الى الخاصرة اليسرى او مؤخرة الجبهة . ما هو مهم ان يتركه يرتاح قليلا بعد تناول الطعم، وفي لحظة الاستراحة والحذر يطلق طلقته الواحدة .

ها هو ذا قد اقبل . عرف ذلك من رائحته البرية ومن ايقـاع خطواته المقتربة فوق العشب .

وارتفع اكثر النشيد الجريح . نشيد النساء اللواتي كتبن بدمائهن اسم الوطن فوق الارض والجدران .

النادبات يصعدن مرثية الالم العميق . يتمايلن كقصب فيمهب ريح ، وهن يستعدن الحالة لزمن مضى . الارض تهتز والجـدران. لقد بدا الدوار السري المحموم لنفوس لم يبق لها غير الاسى فيهذه الهداة الليلية .

بن جلول صامت كالبحر .
عميقا ... عميقا لينشد الحزن .
ليكون الحزن وسادة العروس في ضجعتها الاخيرة .

ابدا لا يستطيع بن جلول ان يفهم هذا الموت . هـذه الحالـة الغريبة التي اصابت الناس في كل مكان فتحولوا الى كورس ينشـد المراثي ، لكأن العالم كله قد مات بموت عائشة .

انه يتحدث بلهجته الخائبة عن امور مضت . وعن امور ستاتي. وحيدا ولا من يبالي به وكأنه اخر سلالة اسرة موشكة على الانقـراض. يوغل وحيدا في عالم قاتم . عالم لا يسبب غير المرارة . فهـو يقول لعائشة وراسها فوق صدره العاري في فراش نومها : من يصـدق ياعائشة . أمصدقة انت ؟

ـ اصدق ماذا ؟

وبنبرة حزن يتابع : هذا الذي حدث . الدم هو الدم . الـذي اختلف هو الرصاص . ان القتلةاليوم لا يأتون هذه المرة من خـارج الحدود . لماذا يحدث هذا . لماذا ؟

يغمر الحزن الزوجة الوفية ، فتمد اصابعها تداعب بهـا شعر صدر بن جلول الذي مازال فتيا . تصعد الاصابع بحنو نحو الرقبة والوجه ، واذ تقترب من العينين تتوقف : اما آن لك ان تنسى . شد ما يبدو وجهك متعبا وكئيبا وانت تتحدث عن هذه الامور ياعزيزي!

انسى ! حتى انت يا عائشة ! كيف ينسى الجبل والبحر ؟ كيف ينسى الدم والصراخ ؟ الرجل الذي قضمت ساقيه كلاب الطغـــاة المتوحشين والمرمي على بوابة الجامع ، ينوح بكل الذل والعار : حسنة يا مؤمنين . حسنة للعاجز . حسنة للثائر المقعد . ويأتيه الجواب : ربي ينوب . الله يفتح . ثم الاخر الذي قطعوا اعضاءه التناسلية والملقى على درج القصر العدلي . الذين اغتصبت نساؤهم وهم في السجون واقبية التعذيب . نساء الشهداء اللواتي تحولن الى مومسات . الاطفال الجياع الحفاة المشردون فوق ارصفة الشوارع . الاف الفلاحين والعمال المكومين كالحيوانات في زرائب الصفيح خارج المدن . هؤلاء من يستطيع ان ينساهم يا عائشة . قولي من يستطيع ؟

الحـزن .

كانت تعطيه الان صدرها الفسيح العاري . قالت مشيرة الـــى ثدييها المتدليين : انظر ما فعله الزمن . فيما مضى كانا صلبين كحجرين من المرمر . هل ستاخذني الى البحر كثيرا . البحر يعيد النضـــارة للانسان ، ويعيده طفلا . وكرائحة الغابات عبقت رائحة ابطها . واجتاحه دوار فالثم كتفها . وخفيفا ضغط باسنانه رمانة الكتف ، ثم انحدر وجهه المتوهج فتناول بين شفتيه حلمة الثدي وراح يرضعه بشبق لذلذ وعلى مهل . وانزلقت فوق البلاط وكان هناك جلد من الصوف الابيض وهبطا فوق الصوف . كانا ملتحمين وما كان باستطاعة اي منهما ان ينفصل عن الاخر . وسالها هامسا : بماذا تشعرين ؟ وقالت : الارض تدور . خذني. ادخل بكليتك فيّ . وكانت ترتعش بايقاع خاص وهي ممددةعلى ظهرها الابيض فوق الجلد الصوفي الابيض وكان الغروب ينسحب خلف ستار النافذة الابيض . وكانت الموسيقي شجية خافتة والجسد ناصعا وطريا كفراش من اسفنج ، وبدا الخوف وايقاع الخطوات القادمة ينحل في طقس هذا الشيء البهيج الذي يسحب الروح ويرفع نبضات القلب دافعا الدم موجة اثر اخرى نحو كل الخلايا . وعبر الارض نشيج طويل حار اندغم بصوت الموسيقى الخفية ، واحس بن جلول برعدة تسري في مفاصله وهو يسمع النشيد المأساوي في الغرفة المجاورة تصدح بـــه المنشدات بصوت جارح . وجاءته موجة اخرى حملها البحر وريـــح الجبـل .

كان من الصعب ان تصدق ان تلك التي عرفتها في ازمان الضيق، التي حمتك وغطتك في ليالي البرد ، التي آوتك عندما كنت بلا ماوى والتي اطعمتك في نهارات الجوع ، قد مات .

لقد حدثتها عنهم كيف سيخرجون من نطاق الصحاري فيجتاحون المدن بلا شفقة . يثارون للجوع والخيانة والاضطهاد . وقلت لها بان دما كثيرا سيسفك وان النساء سيزغردن بدل اناشيد الحزن زغاريد الفرح والنصر . سيختفي الجوع والخيانات والكمائن وستهدم اكواخ الصفيح وسيكون بمقدور الثوار الفقراء القدامى ان يأكلوا الخبز الحار والحليب واللحم والفواكه .

تلك هي القوة الروحية يا حبيبتي . روح الشعب يا عائشة .

غير أن عائشة الحبيبة التي كانت وفية فيما مضى كانت تقول . آه لا بد انك مريض يا حبيبي . وتتلمس صدغ بن جلول ونبضه : حرارتك مرتفعة وتحتاج طبيبا .

ـ ولكن ليس هذا هو ما نتحدث عنه يا حبيبتي . انا اتحدث عن الزمن القادم وانت تتحدثين عن الحمى .

ـ تتعب نفسك كثيرا بهذه الافكار الغريبة . من اين تاتيك هـذه الاحلام التي ترفع الحرارة . لقد انتهى كل شيء . ثم الم تتـــزوج لتستريح ؟ لو رأيت صحابك القدامى . لقد تزوجوا هم ايضا واستراحوا بعضهم تزوج امرأة واخر تزوج مقهى او ذكرى او خمارة او وظيفة او سيارة . بهذه الطريقة نسوا الحزن واستراحوا . الى متى ستظـــل تحمل هموم العالم على كتفيك ؟

الم تتعب ؟

وبلا رحمة مزقت المشارط الباردة رحم عائشة . اجتازت خلايـــا اللحم حتى مستقر الروح فاختطفتها . صرخة واحدة هي صرخة خطف الروح كل ما صدر عن التي هدأت ودخلت غيابها الابدي .

فوق محفة بيضاء مجللة حملوها وجاؤوا بها لابن جلول . وسال : ما الذي تقدمونه لي ؟ وقالوا : خذ عروسك القديمة . وتحسس بـــن جلول وجه عروسه . كان باردا كالثلج . وصاح بصوت كالرعد : ليس هذا وجه عروسي . وجه عروسي حار كنيران الجبال . ليست هذه عروسي . عروسي حية لا تموت .

وفي تلك اللحظة اطلقت طلقة واحدة في مؤخرة الراس ، وكالرمح وثب الوحش الجميل نحو الاعلى ثم سقط . وصرخ بن جلول الاعمى : ايها الكلاب . الغابة . الغابة . أين الغابة ما عدت ارى . وفي اسفل الشفة السفلى كانت هناك نقطة دم راحت تمتصها وهي ترتعش وتتقصف في هبوب ريح الجنس ، وتنامى صوت المنشدات حزينا ، فاجعا وعميقا جاء من الممرات والجدران والفضاء والغابات والحقول والسهـــوب والصحارى والاغوار والشوارع واكواخ الصفيح ومدافن الشهـــداء والقتلى والزنزانات واقبية التعذيب والمنافي .

عميقا ... عميقا لننشد الحزن طويلا كان نوم العروس هذه المرة آه . اه . متى تستيقظ هذه النائمة الجميلة ؟

حيدر حيدر